الأبعاد الثقافية للمسخ وتجليها في الحكاية الخرافية

"حكاية عجوزة النار أنموذجا"

The cultural dimensions of the metamorphosis and its manifestation in the fairy tale

"The story of the old man of fire is a model"

سهام سلطاني[1]، عبد اللطيف حنّي[2]

جامعة الشاذلي بن جديد الطارف (الجزائر) siham.sm36@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/01/10 تاريخ القبول: 2022/05/21 تاريخ النشر: 2022/12/15

ملخص: نسعى في هذه الورقة البحثية دراسة الأبعاد الثقافية للمسخ وتجليها في الحكاية الخرافية التي تعد من أهم الأجناس الشعبية التي تكتنز بين دفتيها أبعادا ثقافية تعمل على استثارة المتلقي لكشف خباياها الخبيئة، وهذا ما جعلها نصا غنيا بالدلالات المتعددة، وحاولنا إماطة اللثام عن الأبعاد الثقافية للمسخ، متخذين من حكاية "عجوز النار" أنموذجا، وذلك بالتركيز على مصطلح الحكاية الخرافية والمسخ، ثم تسليط الضوء على الأبعاد الثقافية الحاضرة في نصها المتجلية في الرموز الحيوانية الموظفة، وقراءة مضامينها ودلالاتها الثقافية.

كلمات مفتاحية: الأبعاد؛ الثقافية؛ المسخ؛ التجلي؛ الحكاية الخرافية

Abstract:

In this research paper, we seek to study the cultural dimensions of metamorphosis and its manifestation in the fairy tale, which is one of the most important folk races that contain cultural dimensions that work to provoke the recipient to reveal its hidden secrets. From the story "The Old Man of Fire" as a model, by focusing on the term "fairy tale and metamorphosis", then shedding light on the cultural dimensions present in its text, which are manifested in the animal symbols employed, and reading its contents and cultural connotations.

Keywords: dimensions;cultural; metamorphosis; transfiguration; fairy tale

المؤلف المرسل: سهام سلطاني، **الإيميل**: siham.sm36@gmail.com

1.مقدمة:

تعد الحكاية الخرافية شكلا من أشكال التعبير في الأدب الشعبي، المجهولة المؤلف، تناقلت بين الأجيال عن طريق الرواية الشفوية، بلغة شعبية بسيطة وبإبداع شعبي منسوج من الروح الخيالية، فهي وعاء فني يحتوي آمال وآلام الشعوب وطموحاتها، فهي بذلك حلقة وصل بين مختلف الأجيال، تحوي في مضمونها قيما تربوية وأخلاقية هادفة في المجتمع الإنساني.

والحكاية الخرافية من أهم الأنواع الشعبية انتشارا بين الأوساط الشعبية، أهم ما يميزها عن غيرها من هذه الأنواع عالمها العجيب والمثير، وهو العالم المجهول المملوء بالشخوص البعيدة كل البعد عن عالمنا الواقعي، فأبطال الحكاية الخرافية يختلطون بأشخاص من مثل الجن والغيلان والساحرات والطيور الغريبة...دون غرابة أو خوف فيواجهونها أو يتلقون منها المساعدة.

ويعتبر المسخ أحد الظواهر التي نجدها طاغية على نصوص الحكاية الخرافية، باعتباره الوسيلة أو الأداة التي تمنح الحكاية جانبها الإبداعي والإستثاري، من خلال تحويل صورة الشيء إلى صورة أخرى.

وقد سلطت الضوء على حكاية "عجوزة النار" التي تعد من الموروث الشعبي الجزائري، وذلك للكشف عن الأبعاد الثقافية للمسخ التي تضمنها نص هذه الحكاية، والتي نقلت لنا صورة واقعية عن معاناة شريحة من المجتمع جراء هذا التحول وما يخلفه في نفسية الإنسان.

2.مفهوم الحكاية الخرافية:

تعد الحكاية الخرافية من الفنون الشعبية التي حضت باهتمام كبيرا من قبل الباحثين الأنثربولوجيين، وعلماء النفس الاجتماعي، وهذا نظرا لثراء مادتها، وارتباطها بالكثير من القيم الإنسانية الهادفة التي يكتسبها الوجدان الشعبي، فقد استطاعت أن تثير عديد القضايا من خلال سلوكات أفرادها وتعبيرها عن واقعهم الاجتماعي.

ولهذا تعددت التعريفات اللغوية والاصطلاحية المخصصة لهذا المفهوم الشعبي:

فمن الناحية اللغوية جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة "حكى": "الحكاية كقوله: حكيت فلانا وحاكيته، فعلت مثل فعله أو قلت مثل قوله سواء لم أجاوزه، وحكيت عنه الحديث حكاية".(منظور، 2008، صفحة 96).

أما الحكاية من ناحية مفهومها الاصطلاحي فهي تعد قصة ذات بداية ونهاية، أو هي عملية قص لأحاديث، تلعب فيها الخوارق والخيال دورها، وتمتاز بالتماسك وقوة الحبك والبناء والتكامل، وهي تعتمد على حوادث كبيرة فاصلة، غالبا ما تكون غريبة ونادرة، وهي حوادث كثيرة وكبيرة ليس فيها شيء من الوقوف على الحوادث الصغيرة والتفصيلات.

أما عن مفهوم الحكاية الخرافية فهي عملية قص لأحاديث تلعب فيها الخوارق والخيال دورا مهما، من منطلق أننا لا نصدق محتواها اللامنطقية على أن أسلوبها المشوق يدفعنا ولو لم نشأ أن نتحرك في عالمها المجهول، والذي نفى بنا إلى اللاواقع حيث نجد أحلامنا تتحقق، "فالحكاية الخرافية تعد الأدب المعبر عن الرغبة الإنسانية الملحة في تعبير وجود الإنسان الداخلي؛ بل تعبير الوجود كله"(ابراهيم، 1990، صفحة 66).

وقد عرف فريديريش فون ديرلاين الحكاية الخرافية بقوله: "إن الحكاية الخرافية بكل ما فيها من تعد أدباء، أما الإنسان في الحكاية الخرافية فيتصل بمحض اختياره بقوى العالم الآخر، وهي ذات طريقة تجريدية في العرض، كما أنها تسمو بالموضوع والصور إلى الدرجة المثالية"(ديرلاين، 1990، صفحة 67).

ولتعريفها تعريفا دقيقا تقول نبيلة إبراهيم: "وقد انتهى الكاتب إلى أن الحكاية الخرافية تكونت في الأصل من أخبار مفردة تنبعث من الشعوب البدائية، ومن تصوراتهم ومعتقداتهم، ثم تطرفت هذه الأخبار، واتخذت شكلا فنيا على يد القاص الشعبي، وأصبحت لها قواعد وأصول محددة درسها الكاتب دراسة وافية"(بورايو، 2007، صفحة 199).

من خلال ما تطرقنا إليه من تعريفات اصطلاحية نرى بأن الحكاية الخرافية نتاج فكري أنتجته الشعوب عبر تاريخها الطويل، وأودعت بها أروع قصصها، وأجمل ما مر بها من أحداث، فجاءت لتعكس خلاصة تجاربها، وتعطي صورة حية نابضة عن واقع المجتمعات عبر مراحل تاريخها الطويل، تتجلى فيها

حكمة الشعب وعصارة تجاربه وتفاعله مع الواقع، وعلى الرغم من بساطة الأجواء التي تروى فيها واللغة السهلة، فالحكاية الخرافية تعد لبنة أساسية في البناء الثقافي والاجتماعي للمجتمعات الإنسانية.

3.مفهوم المسخ:

يعد المسخ من المواضيع المتشعبة الدراسة، فقد وردت الكلمة في عدة معاجم لغوية، وتحمل تقريبا نفس الإحالة لهذه اللفظة، فقد جاء في "لسان العرب" أن من معاني مادة (م. س. خ): "تحويل صورة إلى صورة أقبح منها"(منظور، 2008، صفحة 96).

ويتفق هذا المفهوم اللغوي مع ما وظفه "الراغب الأصفهاني" في كتابه "المفردات في غريب القران": "امسخ تشويه الخلق والخلق وتحويلهما من صورة إلى صورة، قال بعض الحكماء: المسخ ضربان: مسخ خاص في العينة وهو مسخ الخلق، ومسخ قد يحصل في كل زمان وهو مسخ الخلق، وذلك أن يصير الإنسان متخلقا بخلق ذميم من أخلاق بعض الحيوانات نحو: أن يصير في شدة الحرص كالكلب، وفي الشره كالخنزير، وفي العمارة كالثور، قال: وعلى هذا أحد الوجهين"(الأصفهاني، د ت، صفحة 605)، وجاء في قوله تعالى: "وجعل منهم القردة والخنازير" (سورة المائدة: 60).

ومنه يتبين أن للمسخ مظهرين: أحدهما يخص الشكل والهيئة، والآخر يخص النفس والأخلاق، ويكون في نفس الأزمنة، حيث يهتم الإنسان بغرائزه وشهواته فيتساوى بذلك مع الحيوان.

أما في المعاجم العربية الحديثة، فنجد أن مادة (م.س.خ) تعني: "حول صورته التي كان عليها إلى غيرها وإلى أخربأقبح، ومنه يقال مسخه الله قردا ...المسخ مصدر، وعند الحكماء انتقال النفس الناطقة من بدن الإنسان إلى بدن حيوان آخر يناسبه في الأوصاف كبدن الأسد للشجاع،وبدن الأرنب للجبان"(بطرس، 1987، صفحة 850).

ونفس المعنى نجده في معجم "متن اللغة": "مسخه، مسخا: حول صورته إلى أخرى أقبح منها، ومسخه الله قردا: جعله على هيئته" (أحمد، 1960، صفحة 293).

ومن هنا نجد أن معنى لفظة (مسخ) لم تشهد تطورا لغويا كبيرا بالمقارنة بين المعاجم العربية القديمة والحديثة، فهي ذلك التحول من حالة إلى أخرى أقبح منها، ولازالت موجودة في العقول والقلوب عبر العصور بنفس المعنى.

أما في المفهوم الاصطلاحي فالمسخ يعد من المواضيع الأكثر شيوعا في الأدب بكل أجناسه، ويدور معناه حول التحول القبيح، فقد عرفه "ضياء الدين ابن الأثير": "قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة، والقسمة تقتضي أن يقرن إليه ضده، وهو قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة"(ابن الأثير، د ت، صفحة 291)، لكن المسخ لا يخص الشكل فقط؛ بل يتعدى إلى الروح والقلب والنفس، ويختلف عن التناسخ الاصطلاحي.

فالمسخ إذن يعمل على تغيير أهم عناصر الكائن الإنساني، يتحول دون أن يعرف سبب تحوله إلى كائن بوصفات مغايرة ومقلقة، فالشخصيات الممسوخة تظهر في شكل شخصيات مضطربة وقلقة ومشوهة، "والممسوخ من الإنسان، إنسان ممسوخ لا أنه ممسوخ فاقد للإنسانية"(مُحَمَّد حسين، 1977، صفحة 208).

4.الجذور الثقافية للمسخ:

يختلف تجلي ظاهرة المسخ باختلاف الديانات والمذاهب والطوائف، حيث نجده كنوع من أنواع التقمص أو التناسخ الروحي في الديانات الهندية الذين "يؤمنون بعقيد التناسخ أو جولان الروح، يقال لها بالهندية أواكمن أو بنرجنم، والتناسخ عندهم حلول الروح في جسم حيوان أو حشرة أو نبات، فإذا أخطأ الإنسان في عبوديته لله فإن روحه تختار أربعة وسبعين مائة ألف جسم من أجسام المواشي، والطيور، والحشرات ثم تنتقل إلى جسم الإنسان" (عبد الله، 2003، صفحة 620).

من خلال هذا نلاحظ بأن المسخ منذ القدم يتضمن صورة مشوهة لروح الإنسان، حيث تتحول روح الإنسان لتسكن في حيوان ما نتيجة أخطائه وأفعاله الدنيئة، ويكون بذلك المسخ بمثابة عقاب له، بالإضافة إلى هذا فقدماء المصريين يرون بأن الروح عندهم تتناسخ بالتتابع صور جميع الحيوانات التي تعيش على الأرض، "فقد رسموا آلهة مختلطة بجسد بشري، ورأس واحد من الحيوانات، كإله الحكمة توت كان له

رأس طير، ولإله النور حورس رأس صقر، أما إله الماء سيبيك فله رأس تمساح، ولإله الخصب خنوم رأس كبش، وتجسد الإله رع بصور مختلفة مرة في صورة الشيخ اتوم، ومرة في صورة مومياء، ومرة في صورة عجل، وأخرى في صورة هر رمادي ...."(ميغولفسكي، 2009، صفحة 11).

من خلال تتبعنا لظاهرة المسخ يتبين لنا أنها موجودة منذ القدم، وفي أغلب الديانات والمذاهب.

ونجد مزيدا من الشخصيات الممسوخة في الأساطير بكل أنواعها في كتاب "أوفيد" المعنون ب "مسخ الكائنات"، وله الأثر الكبير على تاريخ الأدب العالمي، فقد تناول تلك الأساطير بأسلوب شعري، تضمنها موضوع تغير صور الكائنات الحية، وأشكالها، وتحولها من شكل لآخر أو من طبيعة لأخرى.

وبالتالي فقد تم توظيف المسخ لصياغة معتقدات خرافية وأساطير، ومن أشهر تلك المعتقدات التي مازلت باقية في عقول العديد من الأشخاص حتى يومنا هذا هي معتقد عقاب الشخص الذي يهين النعمة أو الخبز، وذلك بمسخه إلى صخر أو أي شيء جامد، مثل أسطورة المرأة المعلقة في القمر، فقد مسخها الله عز وجل لأنها مسحت فضلات ابنها بعجينة الكسرة (الخبز)، وغيرها من النماذج التي تدل على وجود ظاهرة المسخ في عقول مجتمعاتنا العربية الشعبية.

كما يظهر لنا المسخ أيضا في الفكر والأدب الحديث، من حيث أنه شعور داخلي ينبع من إدراك لنبذ المجتمع، ويتجلى ذلك في العديد من الروايات والقصص والأشعار، وقد برز "فرانس كافكا" في هذه المسألة من خلال روايته الشهيرة "المسخ" باللغة الألمانية، هذا المسخ لا يشبه الاتجاه الروحي الذي نعرفه لدى الديانة البوذية، فالقصة تتعامل مع شعور داخلي ومع واقع عميق؛ إذ تعتبر الحكاية صرخة احتجاج بوجه عالم لا يلتفت إلى المضامين والمعاني، بقدر التفاته إلى الأشكال الخارجية للأشياء، عالم يسوده اللامنطق واللامعقول، عالم ممسوخ وأساس مسخه الشعور بالقلق، وعدم الانتماء، واللامعنى في هذه الحياة.

5.نص حكاية (عجوزة النار):

(كان يا مكان في قديم الزمان سالف العصر والأوان، كان هناك رجلا يعيش مع ابنته الوحيدة، فقد كان دائما يخرجها للتنزه في الغابة، وذات يوم وهما في طريقهما إلى الغابة رأى الأب عصفورا مختلفا لا مثيل

له يغرد بصوت جميل، فقرر أخذه إلى المنزل، ففرحت ابنته به كثيرا وأصبح رفيقا لها، وفي أحد الأيام سمعت به إحدى جاراتهم والتي كانت تسمى بعجوزة النار، وذلك لقبح وجهها ولأعمالها الدنيئة، فهي لا تحب الخير لأي كان وقلبها حقود وأسود ولهذا سميت بهذا الاسم المشين.

وذات يوم قالت عجوزة النار لابنة الأب أن تقول لوالدها بأن يحضر لها عصفورا يشبه عصفورها الجميل، فصدقتها الفتاة لطيبة قلبها، وقررت إخبار والدها بإحضار عصفور لهذه العجوز، سافر والد الفتاة إلى بلاد بعيدة فلقي في طريقه ثلاث طرق فاستغرب في أي الطرق يسلك، فرأى شجرة فجلس يستريح تحت ظلها، فأحس بشيء خفيف ينتقل من شجرة إلى أخرى، فوجد بأنه قرد ينادي ويصيح بأعلى صوته أين ذهبت يا رفيقي العصفور وتركتني وحيدا، فقص عليه قصته، فقال له بأنه كان رجلا عاديا وعندما لم أقبل الزواج بإحدى الفتيات حولتني والدتها إلى قرد تائه من مكان إلى مكان، ووجدت عصفورا لونه أخضر وأصبحنا صديقين، وفي أحد الأيام أمرته بإحضار الماء من الوادي فذهب ولم يعد، فأخبره والد الفتاة بأن العصفور الأخضر قد وجده في الغابة وهو يعيش الآن معه وابنته في منزلهما، فلما تأخر والد الفتاة ولم يحضر، ذهبت عجوزة النار وقيدت الفتاة، وتركتها بلا طعام أو شراب، وأخذت ذلك العصفور لابنتها الغيورة، فخطر في ذهن القرد حيلة للإيقاع بعجوزة النار، وتمثلت الحيلة في القيام بجلب عصفور آخر وغمسه في بركة للألوان حتى يصبح أخضر اللون، وفي أثناء عودتهما اعترض طريقهما عفريت فقال لهما بأنهما محضوضين للقائه فهو يظهر في كل سنة مرة واحدة، ومن يظهر أمامه يلبي له أي أمنية يرغب في تحقيقها، فطلب منه القرد بارجاعه إلى أصله الحقيقي، فلبطلبه وأرداه إلى طبيعته، وقال له أرنا الطريق الصحيح للعودة إلى الديار، وفي طريقهم قالا له إننا رأيناك تتكلم بكلام غير مفهوم هلا تدلنا على قلته، فقال لهما بأن هذا السر يبقى بينهم، وأن لا يفشيا به إلى أي أحد كان، ثم أطلعهما على حقيقة هذا السر والمتمثل في كيفية تحويل الإنسان إلى شخص حسن وشخص قبيح، ثم قال لهما بأنه عليه العودة وإلا سوف يلقى حتفه ويموت، فلما وصلا وجدا الفتاة مقيدة وفي حالة سيئة، فقام الأب بفك رباط ابنته، فسردت عليه ابنته قصة هذه العجوز وما فعلته بها، فذهبا الأب والرجل إلى هذه عجوزة النار التي كانت برفقة ابنتها والعصفور الأخضر الذي اختطفته، وقاما بتغلية قدر كبير مملوء بالماء لكي يضعا فيه الفتاة ابنة

عجوزة النار، فلما ألقا الكلام الذي أطلعهما عليه العفريت تحولتا إلى أفاعي وهجرتا البلاد بأسرها وانتهت القصة)(حوة، 2020).

6.الأبعاد الثقافية للمسخ وتجليها في الحكاية الخرافية:

تتميز الحكاية الخرافيةباتجاهها الأخلاقي، فهي تكافيء الخير بخيره، والشر بشره. كما تبتعد كل البعد عن الزمان والمكان، وتتألف من الحوادث الجزئية التي تكون في النهاية حدثا كليا، فعالمها يعرف الجن والغيلان والنساء الساحرات والحيوانات والطيور الغريبة، كما تعرف الموتى في العالم السفلي.

وبالتالي تشكل ظاهرة المسخ التي لها جذور ثقافية مستمدة من الديانات السماوية والوضعية ومن الأساطير اليونانية، والرومانية، والمصرية القديمة. بحيث تزود المعتقدين بها بسلاح رهيب جدا؛ إذ أنها تشير بقدرة الغيب على العقاب المباشر، فالمسخ يرمز إلى القدرة على تحويل الإنسان من وضع أعلى إلى وضع أدنى، وتحويل كهذا قد يصيب الأشياء كذلك، فيحولها من حال إلى حال، وكثيرا ما تحدثت الأساطير والمعتقدات والقصص الشعبية عن المسخ، وهذ المسخ قد تسلطه قوى خير كالآلهة أو قوى ساحرة، وقد تسلطه قوى شريرة، وقد يستهدف به إنسان يستحق العقاب أو إنسان مجني عليه، وتورد الحكاية الخرافية صورة من هذا المسخ.

فالتحول يبرز كقوة إيجابية لطاقة التغيير التي يملكها المسخ، فالحكاية الخرافية تمد أحداثها وشخوصها بل موجوداتها بقوى خارقة، قادرة على تحقيق المستحيل، وقلب نواميس الكون، وقد برزت أساطير التحول الأولي بصيغة الكونية إذ يختص هذا التحول بالعالم الأصلي من دون أن يكون له صلة بالإنسان أو بالموت، وأكثر هذه الأساطير متفرعة عن أساطير النشأة، وهناك أساطير أخرى تتحدث عن الانعكاسات في الأزمنة الغابرة، فالتحول قوة إيجابية خارقة قادرة على التغيير نحو الأفضل أو النموذج الأعلى، في حين يقف المسخ في المقابل قوة سلبية خارقة تعمل على التحويل نحو الأسوأ أو الأدنى، وإن كان المسخ يقترن في الغالب بالعقاب والانتقام وقوى الشر والظلام والكره.(سناء، د ت، صفحة 174، 175).

تقوم الحكاية الخرافية المعنونة بعجوزة النار على وقائع خيالية ممتزجة بالواقع في بعض الأحيان، تتعلق بقضايا متعددة، ومن المفيد أن نقول أن الحكاية الخرافية حاولت الإجابة عن مصير الإنسان بعد التحول،

ومنها ما يتعلق بالوظيفة، فعكست لنا العديد من الحقائق النفسية والأخلاقية والوجودية، وهذا لما عالجته من وقائع إنسانية عامة كمشكلة المسخ أو التحول، وصراع الإنسان لاسترجاع ذاته.

لا يمكن لأي قارئ أن يلج إلى عالم النص دون الوقوف عند العنوان، باعتباره الوسيلة الأولى التي تدفعه للقراءة، إنه المفتاح لفك شفرات النص.

فمن الناحية الخارجية جاء عنوان الحكاية الخرافية موسوما بعجوزة النار الذي يشير إلى القوة والشر الكامن بداخلها، بالإضافة إلى هاجس الموت والخوف، وهذا ما يوضحه الإشعاع الدلالي لعنوان الحكاية، إن جمالية الحكاية وقوتها تلمح من خلال عنوانها، باعتباره أول ما يقرأ، فكلما كان مغريا كان بالنسبة للقارئ حافزا مثيرا وتشويقيا، يدفعه لقراءتها، والكشف عن أغوارها، والوقوف عند هويتها المغلقة وأبعادها الخفية.

نجد في البداية الجميلة حكاية الأب وابنته حين كانا يرتادا الغابة للتنزه، وفي عثورهما على العصفور الأخضر الذي يعتبر رمز الخير، ويعتبره الناس فألا حسنا، وإنما يرجع إلى أسطورة، ويعتبر مرجعا للأساطير المصرية القديمة، تلك أسطورة أوزوريس وإيزيس، إنها أسطورة الحياة وتفسير لبدء الخليقة.(أكرم ، 1995، صفحة 92).

فغالبا ما اعتبر الطير رمز التسامي الروحي، وبدقة أكثر فإن الطير ذو الرأس البشري كان في مصر تمثيلا تقليديا لروح الميت المسماة "با"، كما يمكن رؤيتها على ناووس "خونصو" خاصة كما بدا في معرض رمسيس الثاني، الذي أقيم في باريس.(فيليب، 1992، صفحة 172).

إن العصفور الروح رمز عاد المسيحيون للأخذ به، ففن الأيقونات مشابه لفن الأيقونات المصري، وتؤكد حياة قديس أن الروح التي تطير في لحظة الموت، مشابهة للنسر، ويمكن أن تمثل عصافير متنوعة على شجرة الأرواح في الجنة، وأكثر الأمثلة في ذلك فسيفساء كنيسة جوستنيان في "سابرازا" (ليبيا) فعلى هذا البناء العجيب الذي بنى من أجله متحف خاص، يشاهد إلى جانب كل العصافير في حريتها على غصون شجرة الحياة، عصفور في قفص رمز روح مازالت سجينة في الجسد قبل الموت، وكانت العصافير في القفص ترتدي في مصر مدلولا آخر فقد كانت تمثل أرواح الأعداء، وفي المعتقدات التركية القديمة، كانت الأرواح

قبل الولادة طيورية، والعصافير هي رسل ووسطية وإن منحها الطيران يمكنها من الوصول إلى السماء. (فيليب، 1992، صفحة 173).

وهذا ما يقودنا إلى اللون الأخضر ذي البعد الأسطوري فهو يمتاز عن سائر الألوان في الأساطير بمعنى خاص ذلك أنه قرين الشجرة رمز الحياة والتجدد وترتبط الخضرة بالماء رمز الحياة ولذلك فقد صورت الحياة في الكون في جوهرة خضراء وذلك ليس بالصدفة إذ كانت الخضرة هي اللون الطاغي على الفردوس وتصوراته والأخضر في الدين الإسلامي من الألوان الدالة على الدين والعبادة والتقوى ولايفوتنا التذكير بالخضر ورحلته مع ذي القرنين، وعند المصريين يعبر الأخضر في الطبيعة عن عمل الخير وقد كان أوزوريس إله الخضرة والبعث لذا لقب بالأخضر العظيم(سناء، د ت، صفحة 225).

والأخضر في الطبيعة هو علامة البعث، ومن هنا جاء بأنه علامة القيامة عند المصريين، إنه لون أوزيريس الذي عاود الحياة، ولون الجنيات الجنائزية، ولون الموت في طريق إعادة الولادة للحياة على الرسوم القبرية المصرية، وفي اليونانية شاركت الكلمة أخضر، في النبات المتولد ذي العلاقة مع فكرة القوى الإلهية للتجديد.(فيليب، 1992، صفحة 422).

والأخضر يبقى عند الصينيين لون الربيع، كما هو أيضا عند الرومان وفي كثير من الحضارات، يعبر الأخضر عن تجدد الربيع، ويصبح في الغرب رمز الأمل، وفي العصور القديمة التي كانت يجري فيها إقامة الزخرفة للنوافذ الزجاجية، كان الأخضر لون الصليب لأنه رمز التجدد البشري. وفي موضوع لون التجدد فإن المتزوجة عند أتباع الديانة الزرادشتية الحاليين، في القرن العشرين، ترتدي اللون الأخضر، وأصبح لون الربيع الأخضر رمز الثروات المادية وفي الوقت رمز الفن الروحي، إنه اللون المقدس للنبي ولأصحابه، وإن علم الإسلام أخضر، ولكثير من البلدان الإسلامية علمها الذي إما أنه يكون على أساس أخضر وإما أن يكون له نصف هلال أو نجمة أخضرين.(فيليب، 1992، صفحة 423).

1. فالأخضر رمز الخير والإيمان، فالناس يتفاءلون به باعتباره لون النبات والحقل المعطاء، إنه أكثر الألوان شيوعا في الرايات العربية والإسلامية، وهو باد في أستار الكعبة، وقباب الماجد، وعمائم رجال الدين، إنه اللون الذي وصفت به الجنة وأهلها.(أكرم ، 1995، صفحة 96)، قال الله

تعالى: "متكئين على رفرف خضر" (سورة الرحمان: 76)،وقوله تعالى: "عليهم ثياب سندس خضر"(سورة الإنسان: 21).

2. وتعتمد حكاية عجوزة النار بالأساس على فكرة المسخ وتحويل كائن بشري إلى حيوان؛ إذ يتحول الرجل إلى قرد بسبب هذه العجوزة التي تمارس طقوسا على الكائنات الخارقة وتمسخها إلى أنواع من الحيوانات، بعد أن رفض الرجل أن ينصاع لأوامرها، فمسخته إلى قرد يهيم في الغابة بين الأشجار، متخذا الحيوانات رفاقه والجبل مأواه، ويظهر هذا المسخ جليا في القرآن الكريم عندما مسخ الله عز وجل أصحاب السبت من بني إسرائيل إلى قردة، فهذا دليل على أن المسخ هو عقاب للعصاة والمتجبرين، قال الله تعالى: "ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين"(سورة القرة: 65)، وقد درج ابن كثير في تفسير الآية بقوله: "مسخهم الله إلى صورة القردة، وهي أشبه بالأناسي في الشكل الظاهر، وليست بإنسان حقيقة فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر، ومخالفة له في الباطن كان جزاؤهم من جنس عملهم"(كثير، 2002، صفحة 101).

فالتحول الذي آل إليه الرجل وهو تحوله من الهيئة البشرية إلى الهيئة الحيوانية واتخاذه لشكل القرد، هذا الأخير الذي اعتبر رمز التقليد، وفي النحت المسيحي في القرون الوسطى كان القرد حيوانا شيطانيا، وفي مصر القديمة كان القرد الكلبي الرأس حيوانا مقدسا لما بعد الشمس، حيث كانت هذه الحيوانات في الصحراء تحي الشمس قبل شروقها بأصوات متناغمة من الصراخ، وهذا ما يرمز إليه افريز فوق مدخل معبد أبي سمبل في مصر.(فيليب، 1992، صفحة 114).

إضافة إلى ذلك فإن القرد هو مع ايبس أحد رمزين للقمر، الإله توت إله الحكمة والمعرفة والقمر بالنسبة للمصريين القدامى كان رمزا للشمس تحل محلها ليلا ولهذا فهو رمز الإله القمر نفسه.(فيليب، 1992، صفحة 115).

ولعل التحول إلى الصورة الحيوانية التي آل إليها الرجل أبعده عن انتمائه الذاتي وعن المجتمع الإنساني فهو يعيش معاناة أبدية حطمت من روحه ومن معنوياته، فقد تحطم وجوده في الحياة رغم احتفاظه بوعيه البشري.

ولكن بعد تمكن الأب والرجل الممسوخ من الحصول على طقوس استرجاع الذات بعد تحولها من طرف العفريت الذي لا يظهر إلا مرة واحدة في السنة؛ إذ هو حامل الحق والمدافع عنه، فكانت بذلك قوة التحول الأسطورية رافد خارقا للقوة؛ إذ تتخلص في النهاية من رموز الشر والتسلط، وتطرح الحكاية الوجه الآخر لقوة التحول وهو الوجه الشرير لتلك الطاقة الكامنة والخفية.

ولعل استدعاء العفريت هو استحضار خفي وغير معلن لأشد أنواع الجن بطشا وتجبرا، وكان ذلك يوازي الخوف الذي يشعر به الإنسان إزاء هذه المخلوقات التي قد تكون شريرة ومؤذية.

فالعفريت من الكائنات الأسطورية الأهم في تكوين الحدث وذلك بمساعدته ووفائه، ولذا كان الظلم يستدعي ظهور العفريت في دنيا البشر، فهو يرمز للإلهام والتوجيه والتفكير الرافض لكل معاني الاستبداد والاستلاب، وإن كان العفريت رمزا من رموز التثوير والتنوير في الليالي، وبخلاف استدعاء هذه الموجودات الأسطورية؛ إذ يقترن دائما بالجانب الروحي والترميزي للسلوك الأسطوري وللفكر الأسطوري.(سناء، د ت، صفحة 256).

أما النموذج الثاني نجده في نفس الحكاية وهو المسخ إلى أفعى، والذي يمس كل من العجوز الشريرة وابنتها جراء أفعالهما الدنيئة والقذرة، ولأن قلوبهم تحمل الكره والحقد والغيرة والمقت والتعذيب النفسي، وهذا الجانب من التحول نجده واردا في القرآن الكريم في قصة سيدنا موسى عليه السلام عندما حول الله عز وجل العصا إلى أفعى.

والأفعى كما هو معروف لها رمزية كبيرة في مختلف الثقافات الإنسانية، فهي منبع الشرور ومصدره، وكانت توسم بالغدر، ومن صفاتها القوة، فهي رمز الخوف والذعر.

والحية ترمز إلى استمرارية الأشياء وخلودها،كما ورد في ملحمة جلجامش البابلية أمثلة عديدة حول الحية منها محاولة جلجامش الحصول على الخلود من قاع المحيط غير أنه خسرها أخيرا بأن أخذتها منها حية وابتلعتها فنالت الخلق، وهكذا أضاع جلجامش بعد آدم الخلود بسبب الحية وخبثها، من هنا نفهم أن الحية عدوة خلود الإنسان.

وكانت الحية في أكثر الحالات في الشرق الأدنى القديم إلها خيرا للأرض وللأغذية النباتية والنباتات النافعة الأخرى التي تغطي الأرض، وبالتالي ألوهة للحياة، مرتبطة ببعث الحياة، ويمكن أن تكون الحية رمزا للخصب، وكانت ربة جني المواسم "رينحوت أو رينوتيه" تعبد في مصر الفرعونية تحت شكل حية كوبرا، وعند الإغريق كانت ربة الأرض ومواسم الجني "ديمتيرسيريز"، وكذلك فإن الموتى في أعماق الأرض كانوا يشبهون قديما بالحية، وأن الحية هي روح الموتى بالنسبة إلى بعض الإغريق. (فيليب، 1992، صفحة 128، 129، 136).

فهي كرمز للشيطان والشر والعداوة والكراهية، ولما لا وهي توحدت صراحة بالشيطان حين تسلل إبليس إلى الجنة داخل أفعى، وهي التي أغوت حواء بالأكل من الشجرة المحرمة، واستجاب آدم لإغراء حواء فهبطت من الجنة إلى الأرض، فكتب على الأفعى أن تزحف على بطنها بعد أن كانت دابة جميلة من ذوات الأقدام الأربع. ففعلا فإن الأفعى والشيطان وجهان لعملة واحدة، العرب يخشون شرها لأن صورتها في ذهنهم مرتبطة بالجن وقد أدى الخوف من أذاها إلى عبادتها في الجاهلية اتقاء لشرها. (أكرم ، 1995، صفحة 88).

وفي بابل يصرع الإله مردوك الذي هو نفسه على شكل تنين ذي رأس ثعبان مقرن، يصرع يعتبر رمزيا لخلوده ووجدت إشارات كثيرة إلى ذلك في كتاب الموتى إذ يطلق على المتوفي (البيضة الكونية، أو الصقر الذهبي أو اللوتس المقدس أو ايبس الملكي)، وكان أوزوريس سيد التكوينات وهو الذي أخفى جميع أشكال الكائنات في شخصه، فجسد نفسه في مياه النيل، وفي بنت القمح، وفي الأشجار التي تصل إلى أعنان السماء، وكان أوزوريس هو الشكل الرمزي للموت وللعودة.(سناء، د ت، صفحة 175).

7.خاتمة:

من خلال الوقوف على دراسة الحكاية الخرافية الموسومة بعجوزة النار بأبعادها الثقافية، والتي جاءت لتفسر لنا ظاهرة المسخ (التحول) في الأدب الشعبي، تم استخلاص النتائج التالية:

-تعد الحكاية الخرافية من أهم الأنواع الشعبية التي حظيت باهتمام كبير ن قبل الدارسين والباحثين، استطاعت استثارة العديد من القضايا والمشكلات الإنسانية.

-أهم ما يميز الحكاية الخرافية عالمها الخيالي الذي يبتعد كل البعد عن العالم الواقعي للإنسان، لاتصالها بعالم الجن والغيلان والسحرة والمردة.

-يعتبر المسخ تحويل صورة إلى صورة أخرى مغايرة، أو تشويه للخلق، وذلك بتحويل الإنسان من الهيئة الإنسانية إلى الهيئة الحيوانية.

-يوجد مظهرين للمسخ أخدهما يمس الشكل والهيئة والآخر يمس النفس والأخلاق.

-النهاية الوخيمة التي منيت بها عجوزة النار وابنتها جراء أفعالهما الدنيئة التي اقترفتها في حق الأب وابنته، والرجل الممسوخ إلى قرد.

-أفرزت الحكاية الخرافية عدة أبعاد ثقافية تواشجت على نص الحكاية، وذلك من خلال توظيف مختلف الرموز من مثل العصفور الأخضر، القرد، الأفعى حتى يتسنى للقارئ قراءتها ثقافيا ورصد بؤرتها الدلالية ومضامينها الخفية، لتجعل من النص الشعبي نصا ثقافيا بامتياز، قادرا على توليد العديد من القراءات.

8.قائمة المراجع:

-القرآن الكريم.

1. ابن الأثير. (د ت). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. القاهرة، مصر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر.
2. ابن كثير. (2002). تفسير القرآن العظيم. مصر: دار المنار.
3. ابن منظور. (2008). لسان العرب. تحقيق: خالد رشيد القاضي، السعودية: دار الابحاث.
4. الأعظمي عبد الله. (2003). دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند. الرياض، المملكة العربية السعودية: مكتبة الرشد.
5. البستاني بطرس. (1987). محيط المحيط. لبنان: مكتبة لبنان.
6. الراغب الأصفهاني. (د ت). المفردات في غريب القرآن. السعودية: مكتبة نزار مصطفى الباز.

7. الطباطبائي مُحَمَّد حسين. (1977). الميزان في تفسير القرآن. بيروت، لبنان: مؤسسة الاعلمي للمطبوعات.
8. رضا أحمد. (1960). معجم متن اللغة. بيروت، لبنان: دار مكتبة الحياة.
9. سيرنج فيليب. (1992). الرموز في الفن ـ الأديان ـ الحياة. (عبد الهادي عباس، المترجمون) دمشق، سوريا: دار دمشق.
10. عبد الحميد بورايو. (2007). الادب الشعبي الجزائري. الجزائر: دار القصبة للنشر والتوزيع.
11. فريدريش فون ديرلاين. (1990). الحكاية الخرافية نشأتها مناهج دراستها فنيتها. (نبيلة ابراهيم، تحقيق عز الدين اسماعيل، المترجمون) مصر، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر.
12. قانصو أكرم . (1995). التصوير الشعبي العربي. الكويت، عالم المعرفة: المجلس الاعلى للثقافة والفنون.
13. كامل شعلال سناء. (د ت). الأسطورة في رويات نجيب محفوظ. عمان، الأردن: نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي.
14. ميغولفسكي. (2009). أسرار الآلهة والديانات. (حسان ميخائيل إسحاق، المترجمون) دمشق، سوريا: دار علاء الدين والطباعة والنشر والتوزيع.
15. نبيلة ابراهيم. (1990). أشكال التعبير في الأدب الشعبي. مصر: دار نهضة مصر.
16. هميس حوة. (24 أوت, 2020). راوية حكاية عجوزة النار. (سلطاني سهام، المحاور) بلدية الزيتونة، ولاية الطارف الجزائر.